

أمثلة من الترجمة

**Ute Frevert**  
***Die Politik der Demütigung.***  
***Schauplätze von Macht und Ohnmacht***

S. Fischer Verlag, Frankfurt am Main 2017  
ISBN 978-3-103-97222-1

صفحات 7-24

أوته فريفيرت  
"سياسة الإذلال.  
مسارح السلطة والعجز"

ترجمة إيزيس الحكيم



## الموضوع

سيدي بوزيد في ديسمبر 2010... أمام منزل رئيس ولاية سيدي بوزيد يصب بائع الخضار محمد بوعزيزي، البالغ من العمر 26 عامًا على نفسه البنزين ويقوم بإشعال النار. فُيبل ذلك كانت بضاعته قد تعرضت للمرة الثانية للتحفظ عليها على يد شرطية قامت فوق ذلك بسفع وجهه. قيل فيما بعد إنه بإضرار النار في نفسه علانية عبّر بوعزيزي عن إرادته في "رفض المهانة والإذلال من الآن". وما لم يكن له أن يتخيله هو أن غضبته اليائسة أشعلت الجماهير؛ "ثورة الكرامة" أو كما وصفها كتب التاريخ بالثورات العربية أو الربيع العربي. ثار المتظاهرون في أماكن متعددة من شمال إفريقيا والشرق الأوسط ضد النظم الاستبدادية محتلين الساحات العامة ومتحدّين جحافل الشرطة. وتكرر ظهور كلمة "الكرامة" على اللافتات والجداريات وتعليقات الفيسبوك. وعند سؤال النساء والرجال عن دوافعهم وأهدافهم عبروا عن شعورهم بالمهانة من قبل حكوماتهم – مما دفع كاتب المقال في جريدة النيويورك تايمز توماس فريدمان لأن يستنتج أن أكبر قوة سياسية يستهان بها هي الإذلال.

الإخجال وليس الإذلال هو موضوع القصة التي جرت في نوفمبر 2012 في كليفلاند، ولاية أوهايو. تقف شينا هاردين عند مفرق طرق مزدحم حاملة لافتة مكتوباً عليها: "لا تقود سائقة سيارةً على الرصيف لتتجاوز حافلة مدرسية إلا إذا كانت مخبولة." هذا بالضبط ما فعلته السيدة هاردين عدة مرات، فحكمت عليها القاضية بغرامة مالية وسحب مؤقت لرخصة القيادة. ولم تكتف بهذا بل فرضت عليها ما يطلق عليه الأمريكيون: "عقاب مخجل"، وهي عقوبة تنال من شرف الإنسان عن طريق وصف السيدة هاردين علناً بأنها مخبولة. تستهدف العقوبات من هذا النوع العقاب والتأديب كما تستهدف التربية والتهديب. من غير المؤكد ما إذا كانت هذه الرسالة قد وصلت للسيدة هاردين. في اليوم الأول يبدو عدم تأثرها بالموضوع واضحاً؛ الاهتمام الإعلامي يثير ضجراً كما يبدو عليها. في اليوم الثاني وبعد لفت نظر من القاضية ضغطت على نفسها لتعلن أنها تعلمت الدرس ولكن دون أن "تنكسر".

هذا الفرق يميز بين هاردين، 32 سنة، وإيزابيل لاكسامانا، 13 سنة. في مايو 2015، قفزت الفتاة من جسر في الولاية الأمريكية واشنطن لأنها لم تتحمل المهانة العلنية على يد والدها، الذي أغضبته صورة ابنته الذاتية التي انتشرت في المدرسة والتي تبدو فيها مرتدية حمالة صدر رياضية وسروالاً رياضياً ضيقاً، فقام بقص شعرها الطويل وبتصويرها أثناء ذلك. وبعدها تم تداول مقطع الفيديو وأثار الأقاويل في المدرسة انتحرت إيزابيل.

الصحفية التي غطت الحادث شعرت بأنها رجعت إلى العصور الوسطى الحالكة؛ واستنتجت أن الإخجال الطقسي موجود في منظومة العدالة كما هو موجود بداخل الأسرة كممارسة يومية، فتلجأ للتكنولوجيا الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعية لتوظيفها، فالفيسبوك واليوتيوب أدوات فعالة تساعد في فضح خطأ إنسان وتذنيبه توبيخه وكثيراً ما تكون العواقب مأسوية بالنسبة للمُلامين. المراهقون المفتقرون إلى ثقة قوية بالنفس غير قادرين على التعامل مع مثل هذا الإذلال وليس بأيديهم مواجهته. إنهم "ينكسرون" وينهارون تحت نظرات الناس وتعليقاتهم.

من أين تأتي الحاجة إلى فضح الغير، حتى الأبناء أنفسهم، وتعريتهم علانية؟ ما الهدف من هذا الإحراج وما تأثيره؟ لماذا تنتشر حتى في المجتمعات التي طالما أكدت على الكرامة والاحترام؟ هل هي روح العصور الوسطى الحالكة المستمرة حتى الآن؟ أم أن العصر الحديث "المستنير" والمنير الساطع يعبئ دوافعه الخاصة للإخجال ويخترع للإذلال ممارسات جديدة؟

## قوة الخجل

دائمًا ما يتضمن الإخجال العلني استعراضًا للقوة. يعزز الفاعلون الاجتماعيون عن طريق تركيب الآخرين أمام شهود عيان مطلبهم من مكانة بارزة وقوية. يصف ماكس فيبر معنى القوة بأنها "انتهاز كل فرصة بداخل علاقة اجتماعية ليفرض شخص إرادته، حتى وإن كانت هناك اعتراضات، مهما كانت طبيعة هذه الفرصة". بهذا المعنى يمارس والد إيزابيل قوته على ابنته. لقد منعها منعاً باتاً من وضع صور ذاتية

(سلفي) في الإنترنت؛ وعندما فعلت ذلك رغماً عنه، عاقبها بطريقة مذلة وسجلها أمام الناس ووثق العقوبة علناً. بهذا يبرز قوته وعجزها عن الدفاع عن نفسها. هذا الذل أخجلها وأجبرها على أن تخفض عينيها وتتكس رأسها. أرادت أن تختفي عن الأنظار ولم تجد طريقاً سوى أن تنهي وجودها تماماً.

الخجل، في رأي حتى فلاسفة العصر القديم، هو شعور بالقوة القاهرة والفعالية. قد يكون مفعولها قاتلاً وآثارها لا تُمحي في حياة حتى من نجا منها. من مر بتجربة الخجل "حتى يريد أن تبتلعه الأرض" لن يستطيع أن ينساها. ولوجود آخرين ومشاهدتهم للواقعة أهمية كبيرة. قد يشعر الإنسان بالخجل من نفسه بسبب عملة أو فكرة تتناقض مع صورته المثالية عن ذاته ومع مفاهيم الأخلاق السائدة. يجوز مثلاً أن أشعر بالخجل لأنني حسودة من ترقية مستحقة لزميل. الشعور ذاته قد ينتابني عندما أستمتع بمشاهدة رئيسة العمل وهي توبخ زميلة أمام آخرين. يعد الإخجال العلني هنا والآن في الغالب تعدياً لا يغتفر أو حتى انتهاكاً لكرامة الإنسان وإذا ما وجدت فيه شيئاً من المتعة فعلياً أن أخجل من نفسي.

لكن ما هي البشاعة في الإخجال؟ إنها المعرفة المؤلمة بالسلطة والقوة الكامنة في نظرة الناس؛ نظرة لا يمكن التخلص منها، تتوغل تحت الجلد وتلتصق بجسد من تعرض للإخجال. وعندما يصبح لخطأ الفرد أو خرقه للأعراف شهوياً يتفاقم الشعور بالخجل. وكلما كنا نُقيّم احترامهم لنا زاد الشعور بالخجل. الطفل الذي يمد يده على علكة في محل مع علمه بعدم جواز ذلك قد يشعر بالخجل سراً. أما إذا أمسك به وتم إبلاغ والديه فلا يستدعي الأمر حتى طلب الشعور بالخجل حتى يشعر به. الفضح أمام أعين الناس يستدعي حمرة الخجل في وجهه فلا يتمنى إلا الهروب من النظرات المخجلة.

لهذا السبب يقول علماء النفس على الخجل إنه عاطفة اجتماعية أو رابطة بين الأفراد، تظهر في غالب الأحيان في وجود طرف ثالث. سدس من طرح عليهم السؤال فقط، أجابوا بأن الخجل شعور خاص تعيشه الذات. أما ربطه بسياق اجتماعي فيضفي على الخجل قوة وخطورة. الخوف من الإخجال يدفع بالإنسان للمجازفة بكل شيء. شخصية الصبي "أولي" في كتاب الأطفال الكلاسيكي لإريش كستنر "غرفة

الصف الطائرة" يقفز من أعلى سلم طويل ليثبت بأنه ليس بجبان. طالما عيّره زملاؤه بقلة شجاعته، مما كان يجعله "يحمر احمراراً". صحيح أن قفزته تسببت في دخوله المشفى بإصابات بالغة إلا أنها أخرست السنة من عذوبه وسخروا منه.

شخصية "أولي" لكستتر – في كتابه الذي صدر للمرة الأولى في 1933 – تكبر في عالم من الفتیان كان يعتبر الجبن نقيصة خُلقيّة جسيمة. على الصبي أن يكون شجاعاً وأن يثبت شجاعته. وعندما لا يفعل، يمارس عليه الاحتقار والحط من شأنه حتى الإقصاء من الجماعة. تقبل "أولي" هذا وتعايش معه، ولم يعلم لوقف الاستهزاء به مخرجاً إلا بفعل عمل جسور. حالة إيزابيل لاكسامانا كانت مختلفة. يرجح أن تجاهلها لمحظورات والدها بوضع صور على الانترنت بملابس خفيفة لم يشعرها بالخجل. تصوراتها عن الأخلاق والأدب لم تكن بالضرورة متطابقة مع تصوراتها. ما أشعرها بالخجل كان فعل العقاب الأبوي ونشره علناً. لو أنه قص شعرها وراء أبواب مغلقة (وظل سراً) كان يمكن لإيزابيل تقديم حلقة الشعر على أنها تقليعة حديثة بثقة، إلا أن مقطع الفيديو فضح عجزها وإذلالها.

يظهر مفعول الإذلال العلني بجلاء في هذه الأمثلة والكثير غيرها. إنها لا تبرز فحسب سلطة الفاعل في توبيخ وعقاب ما يعتبرونه خرقاً للمألوف أو المتوقع، بل تبرز كذلك سلطة المشاهد سواء كانت حقيقية أو متخيلة. ودائماً ما تكون الأماكن العامة مسرحاً لمآسي السلطة والعجز والخجل والعار والفاعل والضحية. وللجمهور أن يؤيد الإخجال ويزيده. ويمكن أيضاً أن يمتنع. يمكن لعلاقات القوة أن تنعكس، فيتم إخجال من كان يقوم بالفعل. والتاريخ الحديث يقدم مادة وافرة للتأمل تتراوح من العزوف الحازم إلى النقد الواسع ومن الاحتجاج الفردي حتى الثورة الجماعية.

## التاريخ وتفاسيره

من الواضح أن هناك علماء ملموساً بدرجة ما، متجنزراً في الذاكرة الجماعية، يمكن الرجوع إليه في أي وقت، حول ممارسات الإخجال. ربما ذكر تعرية فضح إيزابيل الصحفيين بأساليب الإخجال في العصور الوسطى، مستدعياً صور عواميد التشنيع

والعار إلى الأذهان. وربما علموا أن قص شعر النساء بالذات يمثل رمزاً قديماً للإذلال والإهانة اجتماعياً.

هذه الرموز والممارسات هي موضوع هذا الكتاب، الذي يتابع التطور من القرن الثامن عشر حتى اليوم، مع تركيز أكبر على أوروبا، إلا أنه أيضاً يتناول بقاعاً أخرى في العالم. ويتساءل عن الاستمرارية والانقطاعات ويحلل الأوضاع الملفتة والنقاشات الساخنة. ولا يعني أن أساليب الإخجال، المعروفة والمتناقلة هنا أو هناك من قديم الأزل، ستظهر بالشكل نفسه أو في سياقات متشابهة. من المستفيد منها، على حساب من وبأي هدف، هذا يرتبط بمصلحة سياسية تعود إلى ظروف اجتماعية وهياكل أخلاقية. فالنساء لا يُخلق شعرهن دائماً وفي كل مكان، والمواطنون لا يُحط دائماً وفي كل مكان من كرامتهم على أيدي حكوماتهم، والمجرمون لا يتم عرضهم علناً وتشويههم دائماً وفي كل مكان.

كيف تتشكل المجتمعات التي تقبل مثل هذه الممارسات بل وتطالب بها؟ ما هي الأنظمة السياسية التي تعطي المجال للإذلال وما هي الأنظمة التي تحاول منعها؟ هل يفهم تاريخ الإذلال على أنه قصة تقدم غربي، به بطلات وأبطال بورتوجازيون ليبراليون رفعوا شعار الكرامة الإنسانية عالياً؟ أم أن العصر الحديث قد خلق مسارح ومناسبات وتبريرات ومعاني جديدة؟

كثيراً ما نسمع أن تجربة الحرب العالمية الثانية عجلت بالتطورات إلى حد كبير وأعطت أجنحة لمسار الاحترام والتقدير. وبالفعل التزم ميثاق الأمم المتحدة في عام 1945 في ديباجته بالإيمان " بكرامة وقيمة الشخصية الإنسانية". في عام 1948 جاء في الإعلان العام لحقوق الإنسان في المادة 1: "يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق". كذلك يعتبر الدستور الألماني لعام 1949 الكرامة الإنسانية الحق الأساسي الأول، غير القابل للمساس به ويلزم الدولة بـ"إحترامها وحمايتها". إلا أن الكرامة الإنسانية القائمة على حقوق الفرد كانت موضع نقاش من مدة طويلة. فقد ظهرت الكرامة الإنسانية في القرن الثامن عشر كحجة عندما كان يتعلق الأمر بانتقاد أساليب عقابية تمس الكرامة وإبعادها من النظام القانوني.

سخر ميشيل فوكو من هذه الحجة في دراسته الشهيرة عن ميلاد السجن بأنها "حديث القلب"، معتبراً كل هذا اللغط حول "إنسانية" العقوبات مجرد استراتيجية هدفها "تلطيف الأجهزة"، ابتكرتها ووضعتها الدولة لفرض رقابة بلا ثغرات، تزداد إحكاماً على "الكتلة المجتمعية". ولكن لماذا اختار من يفترض أنه لا يريد سوى السيطرة الكاملة لغة القلب ورهافة الحس للدعاية لها؟ لماذا عبر القضاة فجأة عن اشمزاز أخلاقي من العقوبات العنيفة أو الشفقة تجاه المجرمين الذين توقع عليهم؟ ماذا جرى في قلوبهم وجعلها متقبلة للنقاش الدائر حديثاً عن النزعة الإنسانية؟ كيف أصبحت الكرامة الإنسانية منذ أواخر القرن الثامن عشر وبوادر القرن التاسع عشر موضوعاً متداولاً، وظل هكذا حتى اليوم؟ إرجاعها إلى المشاعر لا يأتي كما يقول فوكو من نبع "مبدأ حسابي" ولكنه يمتلك منطقاً تاريخياً خاصاً به. والحكم عليها بأنها انتهازية يبذل فرصة تحديد مكانها في الثقافة الحديثة والمعمار الاجتماعي.

على نقيض المفكر الفرنسي العلامة يعطي الفيلسوف الإسرائيلي أفيشاي مارجلايت للاحترام والكرامة والشرف أهمية تكوينية. فبالنسبة له يتميز المجتمع المحترم بمؤسساته التي لا تهين الإنسان وتحترم كرامته. هذا يقترب كثيراً من تصورات بعض المعاصرين في نهايات القرن الثامن عشر. لقد دأب رجال القانون في عصر التنوير على توضيح معنى الكرامة والشرف وهم يواجهون منظومة العقوبات المهينة التقليدية بمفاهيم الاحترام الإنساني للنفس والغير. من هذا المنظور يبدو أن العالم الحديث بحث عن أدوات تضاهي قوتها تلك القوة الفتاكة للإذلال الاجتماعي والسياسي من أجل حماية الكرامة والشرف .

### \*الإذلال كسياسة

في الوقت نفسه وظفت المجتمعات الحالية الإخجال والإذلال كأدوات سلطة اجتماعية وسياسية. ولا يُقصد بهذا الإهانات الصغيرة اليومية الشخصية التي تحدث فيما بين الأفراد والتي تكاد لا تخرج للعلن. عندما ينشب خلاف بين جارين حول علو السور الفاصل فيما بينهما ويسئ أحدهما الأدب متعدياً على جاره لفظياً، فهذا إهانة يمكن

لنظيره أن يقاضيه بسببها أمام المحاكم. الإذلال والإخجال الحقيقي يتطلب مسرحةً عامًا وجمهوراً يقوم بدور أساسي وفاعل. كما أن الإذلال العلني لا يكون نتيجة خلاف حول تفاهات لا تخص سوى الديوك المتصارعة. يجب أن تكون الرهانات أكبر من ذلك: خرق تقليد يعتبر مهماً بالنسبة لغالبية من الناس يهمهم التأكيد عليه. عن طريق استعراضه علناً، يتم إبعاد الشخص رمزياً من الجماعة المعنية ويتم عقابه. أما إذا أعيد الشخص فيما بعد، يتحدث علماء علم الاجتماع عن الإخجال مع إعادة الإدماج.

على عكس ذلك يستهدف الإذلال الواصم الإقصاء. عندما حلق جنود جيش الاحتلال الألماني في بولندا للرجال اليهود ذقونهم أو عندما اغتصب الجنود الصربيون وعناصر الميليشيا في حرب البوسنة والهرسك في التسعينيات المسلمات بطريقة منظمة ومستهدفة لهن، لم يكن الهدف لا العقاب ولا الإدماج. بل كان بالأحرى استعراضاً للقوة والحط من شأن أفراد الجماعة الأخرى لدرجة تحطم احترام الذات لمدة طويلة أو حتى إلى الأبد.

كلا الشكلين يتم تنفيذهما بشكل مخطط ومنسق وعلني، وليس بشكل عفوي أو بحسب الموقف، ولكن بحسب سيناريو محكم له هيكل طقسي. وحيث أنه يسهل التعرف عليه بسهولة من كثرة التكرار، يمكن تغيير عناصر متفرقة منه بأشكال مختلفة وتكييفها بحسب الوظيفة. وتتشرك جميعها في هدف واحد هو ترسيخ علاقات السلطة أو تثبيتها، وذلك باستعراض الآخر أمام شهود بأنه بلا قدرة. بهذا المعنى يمكن أن نتحدث عن الإذلال كسياسة واستراتيجية تنفيذاً لفرض القوة، يشارك فيها فاعلون مختلفون وتتجلى على مسارح مختلفة.

إن ما يبرهن على انتشار هذه الاستراتيجيات والممارسات ومسارحها هو من ناحية استمرار جاذبيتها لأصحاب السلطة والساعين إليها والمتصارعين عليها. وهي من جانب آخر تعطي فكرة عن حجم المقاومات ضد مجتمع "محترم" لم يلجأ للإذلال كوسيلة في الماضي ولا الحاضر. حتى النظم الليبرالية أبقت على أشكال من التشنيع والوصم أو أسست أساليب جديدة لها، ليس لها أدنى علاقة بالاحترام والكرامة. منذ أواخر القرن التاسع عشر ومصطلح التشنيع الصحفي متداول، والأمثلة على راهنيته



المستمرة كثيرة. هكذا نشرت صحيفة "بيلد" في شهر أكتوبر 2015 على صفحة مزدوجة أسماء وصور أشخاص نشروا على شبكات التواصل الاجتماعي آراء كارهة للأجانب وعنصرية. واحدة من المتأثرات بنشر صورتها على "عامود التشنيع" اشتكت للقضاء، حيث رأت في ذلك تجريحاً لشخصها، وأيدت محكمة الدرجة الثانية حقها. حتى العقوبات المخجلة المذكورة سالفًا، التي تجد شعبية كبيرة لدى القضاة الأمريكيين بالرغم من أن لها مع ذلك أصواتاً معارضة مؤثرة. وعندما سجلت قناة البي بي سي في عام 2008 ممارسات الإخجال الرسمية بداخل المدارس الصينية كان رد فعل الجمهور البريطاني منقسمًا: فإذا كان هناك قسم شعرَ بعودة العصور الوسطى الأوروبية "الحالكة"، متمنين للصين التنوير، رأى قسم آخر في هذا الطقس الذي ينتهي بإعادة الطفل المُعاقب إلى جماعة الفصل فائدة ما.

## الإذلال في السياسة

كعقوبات الكنيسة القديمة كان هدف هذه الطقوس تعرية المعاقب وعزله حتى يتم إعادة إدماجه بعدما يكون قد تعلم الدرس. في الحالات المثلى يأتي بعد الخجل ندم كشرط للغفران والتصالح. الوضع فيما يتعلق بالإذلال لا يختلف كثيرًا في حقل السياسة، إلا أن منطلق السلطة والشرف هنا أكثر فجورًا منه في العلاقات الاجتماعية. عندما تتعرض الدولة لشرف دولة أخرى دون إبداء أسباب أو إعتذار قد تكون النتيجة نشوب حرب كما حدث في 1870 بين فرنسا وبروسيا. وعندما تنتهي الحرب بالنسبة للطرف المنهزم باتفاق سلام مذل، كما شاهدنا في عام 1919 مع ألمانيا والنمسا والمجر، يكون احتمال العودة للسلاح أكبر. يجدر برجال السياسة والدبلوماسية في مثل هذه الحالات التعامل بحذر شديد وتفادي الإذلال. ولكن يمكنهم استخدامه الذل بدرجات واللعب به لضمان امتيازات في الصراع الدولي والوطني على السلطة.

ربما توضح حادثة وقعت في عام 2010 هذا: عندما أذاع التلفزيون التركي مسلسلا وصم الجنود الاسرائيليين بأنهم قتلة الأطفال، استدعى نائب وزير خارجية إسرائيل داني أيلون سفير تركيا. وقبل أن يتم اللقاء أعلمَ فريق التصوير الحاضر بأنهم سوف

يشاهدون إمتهانه الرمزي: فقد أُجْلِس السفير على مقعد منخفض دون العلم التركي كما أن الإسرائيليين لم يبتسموا له. جاء هذا متوافقاً مع السياسة الخارجية للبلد اليمينية المحافظة التي أرادت استعراض القوة والعزة وليس المجاملات المتبادلة. ولم يمر هذا المشهد، الذي أخرج على هذا النحو عمدًا، مرور الكرام على الحكومة التركية. فقد ردت محتجة بشدة وصبت من جانبها الزيت على النار بتصريحها أن الشعب التركي بأكمله تعرض للإهانة. وطالب الرئيس عبدالله جول أياألون بالاعتذار العلني ورفض الأخير. فقط عند تدخل الرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز، الذي كان قلقًا بشأن العلاقات الجيدة آنذاك مع أهم شريك عسكري في المنطقة، صرح أياألون على مضض بأن ليس من شيمه إهانة سفراء بلدان أجنبية. إلا أن هذا لم يُرض الحكومة التركية، وبعد مرور يوم آخر من تبادل البرقيات الدبلوماسية المتسارعة تسلم سفير أنقرة في النهاية هذا الخطاب ومضمونه: "لم يكن قصدي توجيه الإهانة الشخصية وأعتذر عن كيفية ظهور المشهد وفهمه. أرجو توصيل هذا للشعب التركي الذي نكن له احترامًا بالغًا."

صيغت جمل أياألون وفقًا لقوالب وأخذت من القاموس الدبلوماسي الذي تطور منذ بدايات العصر الحديث. الجديد كان الإشارة إلى الشعب الذي طُلب أن يتم إخطاره بالاعتذار والتأكيد على رسالة احترام له. منذ الثورة الفرنسية أصبحت الدولة موضع الإهتمام الأمة بأكملها التي أفصحت عن نفسها كمشرع صاحب سيادة. انتقلت كرامة الدولة، والتي كانت في الماضي للأمير، إلى الأمة وأصبح المساس بها يخص كل المواطنين المنتمين للدولة. من ثم زعم الحكومة التركية بأن إهانة ممثلها طالت كرامة الشعب نفسه مما دفع الوزير الإسرائيلي إلى توجيه الاعتذار للسفير وللشعب التركي معًا. ولا يقتصر الأمر على هذا المثال وحسب، بل كثيرًا ما تتجلى العلاقات الدولية في العصر الحديث أمام جماهير عريضة توليها أقصى درجات الاهتمام، مما يضيف عليها عاملًا دراميًا كبيرًا. عندما تتبلور أحداث الدبلوماسية أمام الكاميرات يكون للفتات والكلمات المهينة قوة نافذة لم تكن متخيلة في زمن سياسة الغرف المغلقة المحاطة بالسرية.

بالنسبة لسياسة الإذلال على المسارح العالمية تعتبر الوطنية والديمقراطية عوامل دافعة لا تقل أهميتها عن الإعلام، الذي يُخرج هذه السياسة إلى العلن ويقوم بالتعليق عليها. وتتحول وسائل الإعلام خلال ذلك أكثر فأكثر إلى فاعلين قائمين بذاتهم: بمقدورها اكتشاف الخروقات والكشف عن إذلال مزعم وتضخيمه والمطالبة بعقوبات. يمكنها تولى الإذلال بنفسها عن طريق السخرية من السياسيين المحليين والأجانب والسخرية منهم وتصويرهم بشكل كاريكاتيري وإظهار فضائحهم. فقط قامت الدنيا في عام 2016 بسبب قصيدة هجاء للمذيع التلفزيوني الألماني يان بومرمان عن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان. وقد اعتبرها نائبه إهانة للرئيس و-78 مليون تركي. وعليه أراد أردوغان مقاضاة كاتب القصيدة بتهمة إهانة شخصه، بل وأراد توجيه التهمة كذلك بموجب المادة 103 من الدستور (بخصوص إهانة المؤسسات وممثلي الدول الأجنبية).

## تفاوت في المعاني

وهنا يجدر بنا أن نقدم شرحًا للمصطلحات. الفقرة رقم 185 من قانون العقوبات الألماني التي استند إليها أردوغان في شكاواه تشير فعلا إلى الإهانة دون أن تفسرها تفسيرًا دقيقًا. في عام 1989 قدمت المحكمة الاتحادية العليا التعريف التالي: يحمي الإجراء الجنائي من التعدي على الشرف (...). يعد الاتهام لآخر بالنقص على نحو غير صحيح تعديًا على الشرف والذي لو كان صحيحًا لقلل من اعتبار الشخص. فقط مثل هذا الافتراء (قد يكون حكمًا محطًا أو قولًا يمس الشرف) يجرح الاحترام المستحق للكرامة. والإفصاح بالاحتقار وقلة التقدير وعدم الاحترام يمثل في نظر القانون الركن المحقق للفعل.

ما إذن الفرق بين الإهانة والإخجال أو الإذلال؟ الإخجال أيضًا تعبير عن قلة الاحترام والتقدير، أما الإذلال فيشكل الممارسات النافية للاحترام تمامًا. والتعدي على شرف من يتعرض للإخجال والمهانة من ثم دائمًا عنصر مصاحب، وأكثر من ذلك: يكون الهدف هو تدمير للشرف والاحترام بما فيها احترام الذات. من يتعرض

علناً وأمام أعين الناس للإذلال والإخجال يعاني عند إعادة بناء "قيمه الذاتية" وإثبات "أحقية في الإحترام". وتعتبر الإهانة أقل جسامة حيث أنها تتبع منطق التحدي والرد: والرد هو الذي يعطي للإهانة وزن ومعنى. على عكس المخجل والمذلول لا يظل المهان سلبياً وفي حالة معاناة بل عليه أن يقرر ما بين قبول التحدي أو تجاهله. قد يكون رده في شكل طلب بمحاسبة من قام بتوجيه الإهانة أو الرد بمثلها أو المقاضاة أمام المحكمة. قد يستهزأ بها أيضاً أو يدير ظهره إليها أو، كما في رواية لاريش ماريا ريمارك ثلاثة رفاق، الدخول في سباق يحاول فيه الكل أن يتفوق على الآخر. والإهانة في الأصل ليس لها أساساً فعلياً من "نقائص" أو تعديت على الأعراف؛ فهي كما جاء في حكم المحكمة نفسه مجرد إفتراء على غير أساس. ولو أنها كانت قائمة على حقائق مثبتة لما اعتبرت إهانة.

كما أن العنصر المفتقر في الإهانة هو السلطة (والعجز) وكذلك الصفة العقابية. كلاهما أساسيين في الإخجال تقليدياً. من يقوم بالإخجال يفعل هذا رداً على حدوث خرق عرف معترف به. أما الإهانة فتوظف بعيداً عن الرابط العرفي والآداب الاجتماعية. ولذا تتعامل المحاكم في الغالب الأعم، عندما يصل الأمر للتقاضي عن طريق الدعوى الشخصية، كدعوى مدنية. ولا يوجد إهتمام علني في القضية إلا في حالات استثنائية، مثلاً عندما تكون موضوعها سب عنصري.

يوضح مثال العنصرية كذلك ما يفرق الإخجال عن الإذلال، فكثيراً ما يستخدم هاذان المصطلحان كمرادفات، إلا أن معنيهما من الناحيتين التاريخية والتحليلية مختلفان. الإخجال يتعلق بشكل مباشر بسلوك مترسخ بالنسبة لجماعة أو مؤسسة ويتم التعامل معه داخلياً. أما الإذلال فيتم من الداخل إلى الخارج: أي نحن من نحن وأنت مختلف ومن ثم أقل قيمة. من يهين إنسان على أساس انتماءه لجماعة عرقية ويسخر منه ويحط من شأنه، يستهدف بذلك عزله واستبعاده. وكلما هبط المذلول – كما في حزب النمساوي المشهور "رايبارتيين" في عام 1938 عندما أجبر مواطنين يهود بتنظيف الأرصفة راعين - كلما كان الشعور بالقوة أعلى.

لا شك في أن الإخجال كذلك ينطوي على تفاوت في السلطة. الشخص المخجل يكاد لا يستطيع الدفاع عن نفسه وتستمر معاناته حتى بعد إعادة إلى المجموعة بسبب

فقدانه للشرف والاحترام. ومع ذلك، فالعلاقة بين من قام بالإخجال ومن تلقاه ليس بالتراتبية نفسها. فالضحية تسببت في هذا الاختلاف حيث أنها بتصرفها أخرجت نفسها من المجموع أو الجماعة. أما في حالة يهود النمسا فقد تم إبلاغهم بكل بساطة أنهم ما عادوا (من الآن) تابعين للشعب الألماني النمساوي. أي أن كونهم يهود، لا أفعالهم، هو ما جعلهم غير منتمين ومنبوذين وخارجين عن الجماعة، وأظهر إذلالهم علناً هذا بوضوح.

ورغم هذه الفوارق إلا أن الفصل بين الإخجال والإذلال ليس واضحاً في كلامنا اليومي. ويعود السبب من جانب إلى التغيرات التدريجية والأشكال المخلطة التي زادت عددًا وشكلاً في العصر الحديث. عندما يضعف الترابط بين جماعة اجتماعية ويصبح للإنسان الخيار بين انتماءات مختلفة، تفقد عمليات الإخجال التقليدية مسارحها المعتادة. كما أنه في الوقت ذاته تظهر مؤسسات وجمعيات جديدة تبتدع ممارسات خاصة بها للذل والتعرية وتستخدمها كطقوس مؤسساتية. ولا يُعرف دائماً تماماً إذا كانت العقوبات معيارية للإدماج أو للعزل القاطع. التعامل مع المثليين جنسياً قد يكون مخجلاً عندما ينظر للمثلية، كما كان شائعاً في الماضي وكما هو منتشر حتى الآن في دول كثيرة، على أنها مرض لا بد من علاجه. ويمكن أيضاً أن يصبح مذلاً وواصم إلى أقصى درجة ومؤدياً لإنعزال التام. ولا يهم، إذا كان المثليين يرون لهذا الفرق أهمية أم لا.

كما أن الاستخدام اللغوي في القرنين التاسع عشر والعشرين تغير تماماً. فمصطلح الكرامة أصبح له الصدارة بعدما كان مصطلح الشرف هو السائد ثم فقد جاذبيته وأهم في مجال التواصل الاجتماعي. وكثر الحديث في العلن عن الإذلال وتراجع لفظ الإخجال. إلا أن التفريق في المعنى بين الشرف والكرامة صعب في كثير من الأحوال. وعندما أرجعت المحكمة الاتحادية في حكمها عام 1957 بأن الشرف والنزاهة من سمات الإنسان إلى كونها "متأصلة منذ الولادة كجزءاً من كرامته الشخصية" لم تكن تمثل فقط نظرة سائدة لدى الفقهاء، والتي وبسبب عدم وضوح المعنى كادت أن تحول دون رسم خط فاصل واضح بين الإخجال والإذلال.

## الأشخاص والمجالات والأزمة

يدور موضوع هذا الكتاب حول الشكليات لممارسة السلطة الاجتماعية وتجربة الشعور بالعجز؛ يركز على أشخاص ومجموعات ومسارح ومؤسسات مختلفة ويسلط عليها الضوء: الفقهاء الذين يتداولون حول الحجج مع أو ضد عقوبات الضرب والفضح والشرف، المدرسين والمؤسسات المدرسية الذين يتعاركون حول جواز وضع قرطاساً على رأس الأطفال أو ضربهم؛ العساكر وأعضاء البرلمانات الذين يتجادلون حول سوء المعاملة في صفوف الجيش، وأمهات والآباء الذين يفكرون في وجوب أو إمكانية إحراج طفل شقي؛ مؤلفي كتب التربية السليمة وكتب الأطفال الذين لهم رأي في هذا الموضوع، المجموعات الشبابية والروابط الطلابية الذين يمارسون اختباراً للإنضمام مهيناً للجدد، مواطنين ومواطنات عاديون يقصون لسيدة شعر رأسها علناً عندما تنتهك أعراف شرف النساء أو الوطن، أم ترى في المسابقات الرياضية إحراج محتمل لطفها، الدبلوماسيين والساسة الذين إما يقومون بفعل الذل أو يتظاهرون بتعرضهم للإذلال لشرعة المصالح وتفيدها.

أغلب الفاعلين والأحداث المجمع من أوروبا التي لها باع طويل في الإخجال وتاريخ لنقده ليس بطويل. إلا أن الإخجال والإذلال موجود كذلك في أماكن أخرى: أثناء الثورة الثقافية الصينية عندما كان التلاميذ والطلبة يقومون بالسخرية من معلمهم وأساتذتهم وإساءة معاملتهم علناً أو في المكسيك في 2016 عندما قُص لستة مربيين شعرهم وتم تعليق يفت حول رقابهم مكتوب عليها "خونة الوطن" وتم تجريبتهم في الشوارع بلا أحذية لإمتناعهم عن المشاركة في إضراب للمدرسين. في نفس العام في شمال الهند قام نشطاء أصوليين بختف شاب مسيحي بزعم أنه شجع الهندوس على إعتناق المسيحية: حُلت له رأسه وركبوه حمار وقاموا بتفريجه لمدة أربعة ساعات في الحي. لهذه البلدان تقاليد خاصة بها في الإخجال وثقافة متأصلة للإذلال. رغم أنها جميعاً تنهل من مصدر لممارسات ورموز القوة منتشرة في العالم ويتشابه مع بعضها البعض بشكل مدهش.

## عن تحول المشاعر

إلا أن الإخجال والإذلال ليسا ثوابت أنثروبولوجية يمكن أن تجدها مع تغيرات بسيطة عبر تاريخ الإنسانية. كما أن المشاعر المصاحبة لها كالخجل والخضوع أيضاً ليست موحدة عالمياً وثابتة ويمكن استدعائها في أي وقت.

عايش الناس الشعور بالخضوع أو وصفته أو قيمته تاريخياً بطرق مختلفة تماماً. في العهد القديم والجديد كانت له قيمة عالية: فعلي الإنسان أن يخضع لله ويكون خشوعاً أمامه حتى ينال رضاه. "إذا وضعوا تقول: رفع. ويخلص المنخفض العينين." (سفر أيوب 22:29). وفي الوقت نفسه أذل الله البشر كما حلّى له حتى يكسر فيهم التفاخر والإعتزاز بالذات. في المعتقد المسيحي الخشوع من القيم العليا ولم يرى القساوسة ولا رجال الدين مشكلة في الانبطاح أمام الله والهيكل بالقول والجسد. أما مجتمعات اليونان وروما القديمة فربطوا الخشوع والانبطاح بالخدم والعبيد. هذا ما شجع فريدريش نيتشه في ثمانيات القرن التاسع عشر أن يسوي بين الخشوع والجبن والضعف والاستسلام وأن يحكم عليها بأنها من "أخلاق العبيد". وعلى نهج مشابه حكم الأوروبيون منذ أواخر القرن الثامن عشر على ما شهدوه في الشرق بأنه من منظورهم إهانة وإذلال بالغ للشعب أمام حكام رفعوا لمرتبة إله وكل من هم في مرتبة أعلى. لم يعد ممكناً أن تجتمع مثل ومعايير مجتمع مدني واع مع هذه "الشهادات الشرفية". بدلا من ذلك أعطت للأوروبيين سبباً إضافياً للشعور بالتفوق على كافة البلدان والثقافات الأخرى.

مثله مثل الذل فالخجل أيضاً تقليد اجتماعي ثقافي؛ والشعور به يبدأ في سن معين. الأطفال يتعلمون الخجل عندما يشاهدون الكبار وعندما يوجههم الكبار إلى ذلك ويصححونهم. يكثر استخدام بعض المجتمعات للخجل والإخجال في حين لا تستخدمها مجتمعات أخرى كثيراً أو تمتنع عن استخدامها كوسيلة تربوية أو تأديب اجتماعي. ممارسة هذا وبأي قدر يتعلق بالأساس بدرجة التمييز الاجتماعي وتقديرهم للإنفرادية والحرية والحكم الذاتي. وكثيراً ما نجد في النظم الجماعية ذات العلاقات الجماعية القوية تنوع في ممارسات الإخجال التي تثير قدراً عالياً من الشعور بالخجل. ولكن

حتى من نشأ في مجتمعات تتميز بالفرادية الشديدة يعتمد ككائن إجتماعي على إعراف الآخرين ومن ثم يكون حساساً للخجل والإخجال.

وتبعاً لنوربيرت إلياس يمكن القول أن الميل يكبر في عصر الحداثة ولا يقل. عندما يكون الخجل رد فعل على الخوف من "الإهانة الاجتماعية" و"علامات تفوق الآخرين" في حالة الضعف ويبرز "حدود القدرة على تحمل الخجل والعذاب" في مرحلة التحضر، يستنتج من ذلك أن الأوروبيين في القرنين التاسع عشر أو العشرين شعروا بالخجل أكثر وبشكل أعمق مما هو الحال بالنسبة لمن عاشوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. كذلك تحدث عالم الاجتماع جيورج زيمل عندما حدد أن الشعور "بالذات" التي كانت بارزة ومعززة ما حول 1900 "كمحطة رئيسية" للخجل. كما أن بمقدورها تمهيد الطريق للإنسان ليعيش حياة مستقلة وذاتية يمكن في ظروف أخرى أن تعكس صورته في أعين الآخرين باحثاً بعناية وخوف عن علامات الاحتقار أو الانحطاط. إن النرجسية والخجل أو الشعور بالإخجال متقاربين، كما يعلم علماء النفس والمعالجين النفسيين جيداً.

على قدر ما تكون الملاحظات النفسية والنظريات الاجتماعية عن الخجل والإخجال مضيئة في التشخيصات النقدية للفترات الزمنية بقدر ما لا توضح كثيراً عن الأحداث والتطورات التاريخية التي أدت إلى تخلي المجتمعات عن كثير من الممارسات المخجلة. كما لا نعرف كذلك لماذا وما هي الظروف التي أدت إلى إعادة للأشكال التقليدية والرجوع إليها حتى زمننا هذا. لذا لا يرد في هذا الكتاب أوضاع فردية أو قصص صادمة ولا حتى عمليات تحويلية مجردة أو هياكل كبرى كمحور. بل يتعامل المحتوى مع فاعلين حقيقيين حيويين وعلاقاتهم بالمسارح المتبادلة لعمليات الإخجال العلنية، ويدور حول الفاعل والضحية والمُشاهد من أجل السعي للسلطة والتناقضات والتصفيق والنقد.

إن استعراض سياسة الإذلال الحديث يتحدد إذن بحسب مقولة كارل ماركس الشهيرة "يصنع الإنسان (...). التاريخ، لكنه لا يصنعه وفق إرادته مما يختار من ظروف إنما مما هو متاح من قبل ومتوفر ومنقول." من هنا يجتهدون ويرفضون ويبحثون عن بدائل. التصورات الخاصة بالشرف والكرامة لها دور حاسم كثيراً ما يهمل أو يساء



تقديره. مفهوم البشر يتغير مع الزمن وبحسب "الظروف". ترادف المعاني المتنوعة للشرف والنبرة المتساوية الأساسية في المجتمعات الغربية الحديثة شجع مفهوم الكرامة الإنسانية وسهل نشره. ممارسات الإخجال العلني واستراتيجيات الهادفة للإذلال أصبحت تلقى عدم قبول بشكل متزايد.

بدأ هذا في المؤسسات الحكومية خاصة في القضاء العقابي (1) ثم انتقل بعد فترة زمنية طويلة إلى المدارس والأسر. هنا تكون حس مناهض لجرح الكرامة الإنسانية في عقود الماضية بشكل ملحوظ. في الوقت ذاته تقدمت وسائل الإعلام وخاصة الانترنت كفاعلين ومنتديات للإذلال العلني كما أن الرفقاء أيضاً لهم دور فاعل مماثل ومذموم أيضاً (2). كما أن سياسة الإذلال أثبتت أن لها باعاً طويلاً في ساحة العلاقات الدولية (3). حيثما يُحتفى بإعادة بعث مفهوم الكرامة الوطنية كانت الحساسيات عالية والظن بوجود الإذلال ظاهرة. وكلما اشترك الرأي العام في ذلك كلما كان السلاح فتاكاً. هناك شكوك في ما إذا كانت الاعتذارات الرسمية كالتى سادت في تسعينيات القرن الماضي ستغير شئ. فالتيارات المعاكسة قوية وتميل للزيادة لا للنقصان في عصر الشعبوية السياسية.